

مجلـة

جامعة أم القرى

للبحوث العلمية المحكمة

العدد الحادي عشر

السنة التاسعة ، ١٤١٦هـ (١٩٩٥م)

مجلة جامعة أم القرى – جامعة أم القرى – ص.ب: ٧١٥ – مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية ،

هاتف ٥٥٧٤٦٤٤ فاكس ٥٥٦٤٥٦٠



الخُلق : منظور تربوي نفسي لدى كل من ابن مسكويه والغزالي

"عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيء"

(الترمذي، جـ٣ :٣٤٤)

د. محمد حمزة سليماني
أستاذ علم النفس المشارك
كلية التربية - جامعة أم القرى

د. عبد المنان ملا معمور بار
أستاذ الإرشاد النفسي المساعد
كلية التربية - جامعة أم القرى

ملخص البحث

الخلق : منظور تربوي نفسي لدى كل من ابن مسكويه والغزالي.

تهدف هذه الدراسة للإجابة عن التساؤلات التالية :

(١) ماهي أهم الجوانب التربوية النفسية التي حاول كل من ابن مسكويه والغزالي إبرازهـا في موضـوع الأخلاق؟

(٢) ماهي جوانب الالتقاء والاختلاف بين ابن مسكويه والغزالي في دراسة الأخلاق؟

(٣) هل تلك المفاهيم التي توصـل إليهـا ابـن مسـكويه والغـزالي تتمشـى مـع مـا توصلـت إليـه بعـض الدراسات النفسية الحديثة؟

هذا وقد قام الباحثان باستخدام منهج تحليل المعلومات بغرض الوصول إلى إجابة الأسئلة السابقة، حيث قاما بتحليل بعض المعلومات التي وردت في كتاب "تهذيب الأخلاق" لابن مسكويه، وكتاب "إحياء علوم الدين" الجزء الثالث للغزالي.

هذا وقد خرج الباحثان بمجموعة من النتائج منها :

(١) اتفق الغزالي مع ابن مسكويه في تعريف الخلق، لكن الغزالي تناوله بشيء مـن التفصيـل والتوضيـح أكثر من ابن مسكويه.

(٢) اتفق كل من ابن مسكويه والغزالي على أن الأخلاق قابلة للتغيير والتعديـل وأنهـا خاضعـة لمفهـوم الفروق الفردية بين الأفراد.

(٣) أكد كل من ابن مسكويه والغزالي على أهميـة ودور الإرادة والسـلوك ووحدتهمـا في اكتسـاب السلوك الخلقي، حيث أكد علم النفـس أهميـة العلاقـة الوظيفيـة بـين الإرادة الفكريـة والسـلوك العملي بمعنى وجود فكرة امتزاج السلوك عموما والسلوك المعتاد والخلقي والرغبة بالقوة الدافعة.

(٤) أكد كل من ابن مسكويه والغزالي على أهمية تنمية السلوك الخلقي للأطفال حتى تسـود الفضيلـة المجتمع الإنساني، حيث ينبغي تعويد الأطفال أنماط السلوك الحسن والمقبول اجتماعيا، واستخدام أسلوب الثواب والعقاب في عملية تربية الأطفال، مـع إبـراز أهميـة المحاكـاة والقـدوة الحسـنة في اكتساب الأطفال أنماط السلوك الخلقي المرغوب، ومحاولة استغلال عنصر الحياء في عمليـة تزويـد الأطفال بالفضائل والسلوك الحسـن. كمـا ركـز الغـزالي على اكسـاب الطفـل مفـاهيم العـرف الاجتماعي المتمثلة في آداب السلوك والمعاملات الاجتماعية وطلب العلم والـترويح عـن النفـس، مع ممارسة الثواب والتدرج في أسلوب العقاب.

مقدمة :

يعتبر النمو الخلقي أحد أهم مظاهر النمو الاجتماعي عند الفرد ويمثل جانبا مهماً في بناء الشخصية، وينمو في تكامل مع الجوانب الأخرى للشخصية الإنسانية كما يعتبر جانبا راقيا في الشخصية حيث يختص بالقيم والمثل والعادات والتقاليد والمعايير. ويرى راجح (د.ت) أن الخلق يعتبر بعداً من أبعاد الشخصية الذي لايمكن أن ينظر إليه بمعزل عن المعايير الأخلاقية، حيث يحدد في ضوئه سلوك الفرد بأنه خير أو شر، وصواب أو خطأ. فنجد أن الكذب والصدق والسرقة والخيانة والأمانة من سمات الخلق بينما نجد أن التفاؤل والانبساط والانطواء والعصابية من سمات الشخصية. فالخلق بهذا المعنى يعتبر بعداً من أبعاد الشخصية وليس الشخصية كلها. كما ينظر إلى الخلق على أنه نظام من الاستعدادات أو السمات التي تمكن الفرد من التصرف بصورة ثابتة نسبياً حيال المواقف الأخلاقية والعرف والتقاليد والعادات على الرغم من العقبات وضروب الإغراء.

ولقد سعى علماء الأخلاق منذ القدم حتى اليوم للبحث عن مقياس نظرى يكون وسيلة تقاس به الأعمال ويحكم به على هذه الأعمال بالخير أو الشر ولكن مع ذلك لم يتوصلوا إلى مقياس معين بل اختلفت آراؤهم في ذلك اختلافا ظاهراً ويعود السبب في ذلك إلى أن مفهوم الأخلاق مفهوم يثير الكثير من المشكلات الفنية، إذ إن مصطلح الأخلاق يتحدد بوسائل مختلفة من قبل الدارسين كما أنه يتحدد بتفاعل عدد كبير من المؤثرات والعوامل الأخرى (الشيخ، ١٩٨٢م).

ولقد احتوى الإسلام على مجموعة من القيم الأخلاقية والمثل العليا والعادات الأخلاقية الفردية والاجتماعية مما لايرقى إليها أي دستور أخلاقي. منها الإخلاص

في العمل والصدق والأمانة وأداء الواجب واستثمار الوقت ومساعدة الإنسان للإنسان والإيثار على النفس وحب الناس. وأهم مايميز الأخلاق التي نادت بها الشريعة الإسلامية أنها أخلاق ترتبط بجميع أشكال السلوك البشري في جميع النظم الاجتماعية،كما أنها الميزان الذي تصاغ في ظله القوانين المختلفة لهذه النظم، (سلطان، ١٩٧٩م).

ومنذ بداية القرن الهجري الثاني بدأ العلماء المسلمون يختلطون ويمتزجون بغيرهم من الشعوب والثقافات ويتبادلون معهم التراث الثقافي، حيث نشطت حركة الترجمة من ثقافات الشعوب إلى اللغة العربية مما أثر في الثقافة العربية وأدى ذلك إلى ظهور مجموعة من الفلاسفة في الأخلاق وغيرها من الجوانب التربوية والنفسية، مما ترتب عليه ظهور اتجاهات مختلفة في دراسة الأخلاق أوضحها (زقزوق ١٩٨٣م : ٥٤-٥٥) فيما يلي :-

(١) اتجاه عني بالأخلاق العملية المستمدة من القرآن والسنة المطهرة والحكمة العربية ومن أبرز علماء هذا الاتجاه أبو الحسن البصري علي بن محمد بن حبيب أبوالحسن الماوردي ولد في البصرة المتوفي عام٤٥٠هـ صاحب كتاب أدب الدنيا والدين.

(٢) اتجاه غلب عليه الصبغة الصوفية واختلط بكثير من النزعة الفلسفية ويمثل هذا الاتجاه أبوحامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين وميزان العمل.

(٣) اتجاه تأثر بالفلسفة اليونانية فبنى نظرياته على أسس فلسفية ويمثل هذا الاتجاه الكندي، والفارابي، وابن سينا، وإخوان الصفا، وابن مسكويه، وابن الطفيل.

وعلى الرغم من هذا التقسيم الذي ذكره (زقزوق ١٩٨٣م) فإننا نجد في كتابات أولئك العلماء المسلمين الكثير من الجوانب التربوية والنفسية التي يمكن أن تستنتج من أعمالهم في النواحي الأخلاقية. لذا سوف يقوم الباحثان في هذه الدراسة بتناول مفهوم الأخلاق من منظور كل من ابن مسكويه الذي عاش في الربع الأول من القرن الرابع الهجري إلى الربع الأول من القرن الخامس الهجري (انظر ملحق١) والغزالي الذي عاش في منتصف القرن الخامس الهجري إلي بداية القرن السادس الهجري (انظر ملحق٢). مع محاولة ربط مفهوم الأخلاق لدى هذين العالمين المسلمين بمفهوم الأخلاق في الدراسات النفسية الحديثة والتي بدأت بصورة علمية منظمة على يد العالم السويسري جان بياجيه Jean Piaget وطورت على يد العالمين الأمريكيين لورنس كولبرج Lorance Kohlberg وجيمس رست Jems Rest وغيرهم من المختصين في مجال التربية الأخلاقية.

تساؤلات الدراسة :

تسعى هذه الدراسة للإجابة على التساؤلات الرئيسة التالية :-

(١) ماهي أهم الجوانب التربوية النفسية التي حاول كل من ابن مسكويه والغزالي إبرازها في موضوع الأخلاق؟

(٢) ماهي جوانب الالتقاء والاختلاف بين ابن مسكويه والغزالي في دراسة الأخلاق.

(٣) هل تلك المفاهيم التي توصل إليها ابن مسكوسه والغزالي تتمشى مع ما توصلت إليه بعض الدراسات النفسية الحديثة ؟

أهداف الدراسة :

تهدف الدراسة الحالية إلى مايلي :-

١- إبراز آراء ابن مسكويه والغزالي حول مفهوم الأخلاق.

٢- توضيح جوانب الالتقاء والاختلاف بين ابن مسكويه والغزالي حول مفهوم الأخلاق.

٣- مقارنة ماتوصل إليه العلماء المحدثون في مفهوم الأخلاق مع ماتوصل إليه هذا العالمان.

أهمية الدراسة :

١- تنبع أهمية هذه الدراسة من أنها واحدة من الدراسات التي اهتمت باثنين من علماء المسلمين اللذين لهما إسهامات كبيرة في مجال الدراسات العلمية بصورة عامة والتربوية النفسية بصورة خاصة.

٢- محاولة تعريف القارئ والطالب المختص في مجال الدراسات النفسية أن الفكر الإسلامي له إسهامات كبيرة في شتى العلوم والمعارف وأن مايعتقده البعض بأن العلوم والمعارف ماهي إلا وليدة الحضارة الأوروبية أو الأمريكية هو مفهوم خاطئ لأن الحضارة الإسلامية والعربية كان لها أثر بارز إلا أن عدم إظهار هذا الجانب هو الذي أدى إلى هذا الاعتقاد .

٣- محاولة البحث عن الآراء التربوية والنفسية وإبرازها للأجيال اللاحقة علهم يجدون فيها ما ينفعهم أو يرشدهم في دينهم ودنياهم.

٤- محاول إبراز ما كتبه ابن مسكويه الذي يعتبر أول من ألف من العلماء المسلمين في هذا الجانب وله كتاب "تهذيب الأخلاق" الذي أكثره ترجمة أو إختصار لما كتبه أرسطو وأفلاطون عن الأخلاق (العثمان ١٤٠١هـ : ٣٧٢).

٥- محاولة إبراز ماكتبه الغزالي الذي دون علم الأخلاق وفلسفته وخاصة في كتابه إحياء علوم الدين والكتب المشابهة له، حيث إن علم الأخلاق عند الغزالي يقوم على رؤية إسلامية صوفية وإن كان قد اقتبس واستفاد من مختلف الدراسات الفلسفية في هذا الموضوع وخاصة ماكتبه اليونان وترجم لهم (المرجع السابق) فإن له شخصيته المستقلة في دراسة هذا الموضوع.

حدود الدراسة :

تتحدد الدراسة الحالية بتوضيح مفهوم الأخلاق وكل ما يرتبط به لدى كل من ابن مسكويه والغزالي دون غيره من المفاهيم النفسية الأخرى التي ظهرت في كتابات هذين العالمين. كما تتحدد الدراسة بما كتب عن هذا الجانب في كتاب "تهذيب الأخلاق" لابن مسكويه وكتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي.

منهج البحث :

سوف يقوم الباحثان باستخدام منهج تحليل المعلومات، وذلك بغرض الوصول إلى إجابة عن الأسئلة الرئيسية للدراسة وذلك من خلال تحليل المعلومات المرتبطة بمفهوم الأخلاق لدى ابن مسكويه والغزالي.

الإطار النظري :

مفهوم الخلق عند ابن مسكويه والغزالي :

يعرف (ابن مسكويه، ١٣٧٨هـ : ٣١) الخلق بأنه "حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من فكر ولا روية"، وقد قسم الحال إلى قسمين :

(١) مايكون طبيعياً من أصل المزاج، ويمثل هذا القسم السلوك الفطري ومن ذلك الإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب، ويهيج من أقل سبب ويجبن من أيسر شيء، ويفزع من أدنى صوت.

(٢) مايكون مستفادا بالعادة والتدريب ويمثل هذا النوع جميع الأفعال والعادات المكتسبة وما كان بالروية والفكر ثم يستمر عليها أولا فأولا حتى تصير ملكة وخلقا.

ويرى (ابن مسكويه، ١٣٧٨هـ : ٣٦) أن الإنسان مفطور على أخلاق الخير. ومخالفتها تعد تجاوزا للفطرة الإنسانية. ويقول في ذلك " الواجب الذي لامرية فيه ينبغي أن نحرص على الخيرات التي هي كمالنا والتي من أجلها خلقنا، ونجتهد في الوصول إلى الانتهاء إليها، ونتجنب الشرور التي تعوقنا عنها وتنقص من حظنا منها". كما أكد على أن الأخلاق من الصناعات التي يجب أن تعطي العناية الكافية لها حيث يقول : "إن هذه الصناعة هي أفضل الصناعات كلها أعني صناعة الأخلاق والتي تعنى بتجويد أفعال الإنسان بما هو إنسان" (ص:٣٦).

أما الغزالي فقد تطرق إلى علم الأخلاق وأطلق عليه أسماء متعددة منها : علم طريق الآخرة، وعلم صفات القلب، وأسرار معاملات الدين، وأخلاق

الأبرار، وإحياء علوم الدين. لكن علم الأخلاق عند الغزالي هو تكييف النفس وردها إلى ما رسمته الشريعة وخطه رجال المكاشفة من علماء الإسلام ومن سبقهم من الأنبياء والصديقين، والشهداء، (مبارك، د.ت : ١١٣).

هذا وقد عرّف الغزالي الخلق بقوله "الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسناء وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا"(الغزالي (د.ت)، جـ٣ : ٥٣). فالخلق بهذا المعنى كما يقول الغزالي هو هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين إما الحسن وإما القبيح.

كما أكد الغزالي (المرجع السابق) على أن الخلق ليس عبارة عن :

١) الفعل : لأنه رب شخص خلقه السخاء ولايستطيع أن يبذل إما لفقد المال أو لمانع ما، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل بقصد الرياء أو لباعث ما.
٢) القوة : لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء واحدة، لأن كل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك، وذلك لايوجب خلق البخل ولا خلق السخاء.
٣) المعرفة : لأن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح على وجه واحد.
٤) ولكن الخلق عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة.

وبهذا نجد أن الغزالي يتفق في تعريفه للخلق مع ابن مسكويه لكننا نلاحظ أن تعريف الغزالي أكثر شمولا من تعريف ابن مسكويه وإن كان بينهما أوجه شبه واختلاف حيث نلاحظ على التعريفين مايلي :-

الغزالي	ابن مسكويه
هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئاً.	حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية وحال النفس أن يكون طبيعيا من أصل المزاج وإما أن يكون مستفادا بالعادة والتدريب

يتضح مما سبق أن تعريف الغزالي يشبه إلى حد كبير تعريف ابن مسكويه في الجزء الأول منه ونعتقد أن الغزالي قد استفاد مما كتبه ابن مسكويه في هذا الجانب. لكن الغزالي لم يقتصر على ذلك وإنما عمل على إبراز شخصيته حيث عمد إلى توضيح هيئة النفس التي يصدر منها السلوك. فإن كان ذلك السلوك محمودا ومقبولا فإنه يطلق عليه خلقا حسنا وإن كان ذلك السلوك قبيحا مذموما فإنه يطلق عليه خلقا سيئا. وهو ليس عبارة عن الفعل والقوة والمعرفة، ولكن هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة إذ يرى الغزالي أنه لابد من إرتباط السلوك الذي

يقوم به الفرد بالنية والقصد من وراء قيامه بذلك السلوك. وهذا ما لم يتطرق إليه ابن مسكويه الذي ركز على السلوك الفطري المكتسب حيث يرى حال النفس منها ما يكون طبيعيا مرتبطا بالسلوك الفطري ومنها مايكون مكتسبا بالعادة حتى يصير ملكة وخلقا.

ويستنتج الباحثان أن الخلق عبارة عن قيمة ضمنية يستدل على وجودها من ملاحظة الاختيارات التي تظهر وتتكرر في سلوك الفرد والتي غالبا ما تكون متأثرة بالإطار المرجعي الذي ينتمي إليه الفرد. ويقول (الهاشمي، ١٣٩٨هـ :٧) "إن الإنسان عندما يواجه موقفا انفعاليا أو عندما يبدأ عملية عقلية لاتتم المواجهة وهذه البداءة من نقطة الفراغ بل إنه يواجهها بإمكانيات عديدة يختار منها واحدا وهذا الاختيار يتصل بمستوى النضوج والإطار المرجعي لتكوينه الخلقي". كما يستنتج أيضا أن الفرد لايمكن أن يوصف بأنه أخلاقي أو غير أخلاقي لمجرد قيامه بالسلوك المرغوب أو غير المرغوب، إذ لابد من ارتباط السلوك الذي قام به بالنية أو القصد من وراء قيامه بذلك السلوك. وقد أوضح (الشيخ، ١٩٨٢م : ٦) بأن ويلسون وزملاءه (Wilson et al, 1967) قد قدموا تحليلا للسلوك الخلقي باعتباره مكونا من :

- اتجاه نحو الآخرين على أنهم مساوون للفرد.
- قدرة على فهم مشاعر الذات ومشاعر الآخرين.
- استيعاب مجموعة من المعارف والحقائق المرتبطة بالموقف المعين، إذ لابد أن يكون لدى الفرد فكرة معقولة عن نتائج أفعاله وأفعال الآخرين.
- مهارات اجتماعية تتعلق بكفاءة الفرد في القيام بالأدوار الاجتماعية التي يختارها أو تفرض عليه.

- مجموعة من القواعد أو المبادئ الخلقية التي يلزم الفرد نفسه بها ويطبقها في المواقف المختلفة.
- مجموعة من الخصائص التي تجعل الفرد واعيا بالموقف وتدفعه لأن يفكر تفكيرا خلقيا وأن يترجم قراراته إلى أفعال مناسبة.

وتؤكد الدراسات النفسية الحديثة في علم النفس على تعريف الخلق بأنه استعداد نفسي للعمل السلوكي. ويتكون الخلق من الناحية النفسية بأن يبدأ ضئيلا ضعيفا في النفس يشتد فيصير رغبة أو نية أو أمرا مرجوا ثم يصير إرادة راسخة في النفس فخلقا تصدر عنه أفعاله في يسر وسهولة من غير حاجة إلى إعمال للفكر ولا روية. ويذكر (الهاشمي، ١٩٨٦م) تعريفه للخلق بأنه " استعداد نفسي للعمل السلوكي الصريح عندما يتطلب الموقف - فمثلا تفاعل السلوك الخلقي في الدافعية الفاعلية مع التسامي الإنساني ليكون أحسن مما هو عليه في مستقبل سلوكه مع واقعية في حياته الاجتماعية السليمة والناجحة".(ص : ١٤٩) إذاً هناك ارتباط وثيق بين علم النفس وعلم الأخلاق،إذ نجد أن علم الأخلاق يعتمد على كل مايرتبط بالمجال المعرفي، والمجال العاطفي، والمجال النزوعي أو الحركي يقول (أمين، ١٩٦٩م :١٧):إن " علم النفس يبحث في قوى الإحساس والإدراك والحافظة والذاكرة وفي الإرادة وحريتها والخيال والوهم وفي الشعور والعواطف، والباحث في علم الأخلاق لايستغنى عن هذه المباحث".

قابلية الخلق للتغيير والتعديل :

يشير ابن مسكويه إلى أن السلوك الخلقي قابل للتغيير والتبديل، ويعني بذلك أن هذا السلوك الخلقي مكتسب عن طريق التربية والتعليم والتنشئة الاجتماعية ومن هنا يمكن تغييره. فيقول حول هذا المفهوم "اختلف الناس اختلافا فقال بعضهم : من كان له خلق طبيعي لم ينتقل عنه . وقال آخرون: ليس شيء من الأخلاق طبيعيا للإنسان ولا نقول إنه غير طبيعي وذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق، بل ننتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعا أو بطيئاه وهذا الرأي الأخير هو الذي نختاره لأنا نشاهده عيانا" (ابن مسكويه، ١٣٧٨هـ :٢٦) كما يقول أيضا "كل خلق يمكن تغييره ولاشيء ممايمكن تغييره هو بالطبع، فإذا لاخلق ولا واحد منه بالطبع" (المرجع السابق:٢٨). كما يرى (الغزالي، جـ٣ : ٥٥) أن الأخلاق قابلة للتربية والتنمية فيقول في ذلك " لوكانت الأخلاق لاتقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "حسنوا أخلاقكم" وكيف ينكر هذا في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازي من الوحشة إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد،وكل ذلك تغيير للأخلاق "كما يرى الغزالي بأن الغضب والشهوة من الأمور التي يصعب قمعها أو التخلص منهما كلية بالتربية، ولكن يمكن التخفيف من حدتهما بالمجاهدة والرياضة حيث يقول،" فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لايبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا.ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه" كما أوضح هناك فئة من الناس ظنوا أن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان،ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه مايهلكه وهلك.

ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لامحالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال. وليس المطلوب إحاطة ذلك بالكلية بل المطلوب إلى الإعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط. والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً وبالجملة أن يكون في نفسه قويا ومع قوته منقادا للعقل"(المرجع السابق: ٥٥-٥٦).

وقد أوضح الغزالي أيضا مفهوم الفروق الفردية في عملية تربية وتغيير وضبط قوة الشهوة والغضب حيث يقول:"نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافهما سببان :

١- قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان، ولكن أصعبها أمرا وأعصاها على التغيير قوة الشهوة فإنها أقدم وجودا إذ الصبي في مبدأ الفطرة تخلق له الشهوة، ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب، وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز.

٢- أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا والناس فيه على أربع مراتب :

أ- الإنسان الغفل الذي لايميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح، بل بقي كما فطر عليه خاليا عن جميع الإعتقادات، ولم تتم شهوته أيضا باتباع اللذات. فهذا سريع القبول للعلاج جدا فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد، وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان.

ب- أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقيادا لشهوته وإعراضا عن صواب لاستيلاء الشهوة عليه، ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه، إذ عليه قلع ما رسخ في نفسه أولا من كثرة الاعتياد للفساده والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للصلاح ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم.

جـ- أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل تربى عليها، فهذا يصعب معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور وذلك لتضاعف أسباب الضلال.

د- أن يكون مع نشئه على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهي به ويظن أن ذلك يرفع قدره وهذا هو أصعب المراتب.

فالسلوك الخلقي بهذا المعنى سلوك مركب ذو أبعاد متعددة وهو يخضع لمفهوم الفروق الفردية وهذا ما أكدته الدراسات النفسية الحديثة حيث إن الاختلاف بين الأفراد هو اختلاف في الدرجة وليس اختلافاً في الصفة أو الخاصية. يقول (الشيخ، ١٩٨٢م : ٣): "إننا نلاحظ في مواقف حياتنا أن الناس يستجيبون بطرق مختلفة حينما يواجهون بمشكلات خلقية متنوعة. فليس بغريب أن نجد في حياتنا العادية أناسا كثيرين يسلكون بطريقة خلقية في معظم المواقف، ومع ذلك فإنهم يتهربون من الضرائب أو الجمارك. بل إننا نجد من بين المجرمين الذين يمثلون حالات متطرفة من الفشل الأخلاقي من يربأ بنفسه عن ارتكاب جرائم من نوع آخر. فكثيرون من محترفي السرقة على سبيل المثال ينظرون إلى الجرائم الجنسية على أنها شيء حقير ويأنفون من ارتكابها. كذلك قد ينظر تجار ومهربو المخدرات إلى

السرقة على أنها عمل مشين ويربأون بأنفسهم عن ممارستها. وليس بغريب علينا المربين ما نجده لدى كثير من الطلاب من نظرتهم إلى الغش في الامتحانات نظرة تختلف اختلافا بينا عن نظرتهم إلى السرقة أو الكذب وغيرهما".

يتضح مما سبق أن كلا من ابن مسكويه والغزالي أكدا على أن الأخلاق قابلة للتغيير والتعديل، وأن عملية التغييرو التعديل خاضعة لمفهوم الفروق الفردية بين الأفراد والذي أوضحته بشيء من التفصيل الدراسات النفسية الحديثة في شتى فروع علم النفس.

اكتساب الخلق :

أوضح ابن مسكويه أن الناس مراتب في اكتساب السلوك الخلقي والتنشئة الخلقية منهم من يقبل على الآداب الخلقية مسارعة ويتعلمها ويحرص عليها، ومنهم المتواني والممتنع والسهل السلس والفظ العسر والخير والشرير والمتوسطون بين هذه الأطراف لاكتساب السلوك الخلقي ومنهم من يبقى طول عمره على الحال التي كان عليها في طفولته وتبع ماوافقه في الطبع. ويقول في مراتب الناس واكتسابهم للسلوك الخلقي والتنشئة الخلقية:

"أما مراتب الناس في قبول هذه الآداب التي سميناها خلقا والمسارعة إلى تعلمها والحرص عليها فإنها كثيرة وهي تشاهد وتعاين فيهم وخاصة في الأطفال . فإن أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ولايرونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذي انتهى في نشوئه وكماله إلى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه بضروب من الحيل والأفعال المضادة لما في طبعه. وأنت تتأمل من أخلاق

الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه أو ما يظهر في بعضهم من القحة وفي بعضهم من الحياء،وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده. ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الإنسان في قبول الأخلاق الفاضلة وتعلم معه أنهم ليسوا على مرتبة واحدة، وأن فيهم المتواني والممتنع والسهل والسلس والفظ والعسر والخير والشرير والمتوسطون بين هذه الأطراف في مراتب لاتحصى كثرة" (ابن مسكويه،١٣٧٨هـ : ٢٨-٢٩).

ويهتم ابن مسكويه بتوضيح مراتب الناس والفروق الفردية في قبول الآداب والفضائل وتعلمها وتربية السلوك الخلقي لدى الأفراد. حيث يقول ابن مسكويه :

"إننا نجد من الناس من هو خير فاضل من مبدأ تكوينه نرى فيه النجابة طفلا وتنغرس فيه الفلاحة ناشئا بأن يكون حيا كريم الخيم يؤثر مجالسة الأخيار ومؤانسة الفضلاء، وينفر من أضدادهم وليس يكون بذلك إلا بعناية تلحقه من أول مولده. ونجد أيضا من لايكون بهذه الصفة من مبدأ تكوينه بل يكون كسائر الصبيان إلا أنه يسعى ويجتهد ويطلب الحق إذا رأى اختلاف الناس فيه ولا يزال كذلك حتى يبلغ مرتبة الحكماء، أعني أن يصير علمه صحيحا وعمله صوابا". (المرجع السابق : ١٤٤).

ويذكر ابن مسكويه الأمراض التي تلحق بالنفس الإنسانية نتيجة السلوك الخلقي المنحرف وأسبابها وأنواعها وصفاتها وعلاجها. ويوضح ابن مسكويه كما أن الجسم يلحقه المرض ويبحث الأطباء في علاجه بالحمية والأدوية والكي وغيرها، كذلك النفس تتأثر بالمرض الجسمي. وفي ذلك يقول:" وجب أن نعلم أن أحدهما متعلق بصاحبه متغير بتغيره فيصح بصحته ويمرض بمرضه، ونحن نرى ذلك

مشاهدة وعيانا إن كان سبب مرضه أحد الجزئين الشريفين أعني الدماغ والقلب يتغير عقله ويمرض حتى ينكر ذهنه وفكره وتخيله وسائر قوى نفسه الشريفة ويحس هو من نفسه بذلك"، (المرجع السابق، ١٧٩).

كذلك فإن المرض النفسي يؤثر في جسده، ويقول ابن مسكويه : "كذلك أيضا نرى المريض من جهة نفسه إما بالغضب وإما بالحزن وإما بالعشق وإما بالشهوات الهائجة به تتغير صورة بدنه حتى يضطرب ويرتعد ويصفرّ ويحمرّ ويهزل ويسمن ويلحقه ضروب التغير المشاهدة بالحس"، (المرجع السابق : ١٧٩).

ويبين ابن مسكويه طرق الوقاية من السلوك الخلقي المنحرف :

أولا : إذا كانت النفوس خيرة فاضلة تحب نيل الفضائل، يجب على صاحبها أن يعاشر من يجانسه ويطلب من يشاكله ويحذر من معاشرة أهل الشر والمجاهرين بإصابة اللذات القبيحة وركوب الفواحش، ولا يصغي لأخبارهم ولا يروي أشعارهم ولا يحضر مجالسهم.

ثانيا : إذا كان حافظ هذه الصحة قد توحد في العلم وبرع فلا يحملنه العجب بما عنده على ترك الازدياد فإن العلم لانهاية له، وفوق كل ذي علم عليم، ولا يتكاسل عن معاودة ما علمه والدرس له فإن النسيان آفة العلم.

ثالثا : ينبغي لحافظ الصحة على نفسه أن يلطف نظره في كل ما يعمل ويدبر ويستعمل فيه ألات بدنه ونفسه لئلا يجري فيها على عادة تقدمت له مخالفة لما يوجب تمييزه ورويته"، (المرجع السابق : ١٨٠).

وتحدث ابن مسكويه عن بداية التدريب على السلوك الخلقي وأنه يبدأ من العادة والتعود "حتى إذا تعودوا ذلك واستمروا عليه مدة من الزمان كثيرة أمكن فيهم حينئذ أن يعلموا براهين ما أخذوا تقليدا"، (المرجع السابق : ٢٩).

أما الغزالي (د.ت) فيرى أن الفرد يكتسب أخلاقه من تفاعله واحتكاكه بالبيئة التي يعيش فيها فيقول في ذلك " مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها إليه. وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، رأى بالإعتياد والتعليم تكتسب الرذائل وكما أن البدن في الابتداء لايخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم. وكما أن البدن إن كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة، وإن كان مريضا فشأنه جلب الصحة إليه، فكذلك النفس منك إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها واكتساب زيادة صفائها وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها"، (جـ٣ : ٦٠-٦١).

وقد أوضح الغزالي (المرجع السابق ٥٨-٦٠) أن حسن الخلق ينال عن طريق :

أ- "جودٍ إلهي وكمال فطري بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب، بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل

والشرع فيصير عالما بغير تعلم ومؤدبا بغير تأديب كعيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين » (ويرى الباحثان أن هذا الوضع خاص بعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وقد يحدث ذلك لسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين لكننا في هذه الحالة لايمكن أن ننطلق من الخاص إلى العام). ولايبعد أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب.فرب صبي خلق صادق اللهجة سخيا جريا، وربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق وربما يحصل بالتعلم".

ب- اكتساب الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب. فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجود وهو بذل المال، فلايزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهدا نفسه فيه حتي يصير ذلك طبعا له ويتيسر عليه فيصير به جوادا وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق... ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ما لم تتعود النفس جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة، وما لم تواظب عليه مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها... ثم لا يكن في نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة وإستكراه المعصية في زمان دون زمان بل ينبغي أن يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر. وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل.. وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر والأخلاق أقوى وأرسخ، وإنما مقصود العبادات تأثيرها في القلب، وإنما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات... ومصير العبادات لذيذة

فإن العادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك. فإنا قد نرى المنعمين في أحزان دائمة، ونرى المقامر قد يغلب عليه الفرح واللذة بقماره وماهو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار، مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلسا ومع ذلك فهو يحبه ويلتذبه... فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف. فإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه وإلى المقابح فكيف لاتستلذ الحق لوردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه.

إذاً الأخلاق الحسنة كما يقول الغزالي "تارة تكون بالطبع والفطرة أو تارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح، وإذا الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا. فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعا واعتيادا وتعلما فهو في غاية الفضيلة ومن كان رذلا بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت لهم أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل" (المرجع السابق:٦٠). أما الطرق التي تعالج بها الأخلاق فقد أوردها الغزالي كمايلي :-

(١) "أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس مطلع خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويتبع إشارته في مجاهدته. وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه"، (ص:٦٤). وأوضح الغزالي أن الشيخ المتبوع لابد أن يراعي الفروق الفردية بين مريديه فيقول "فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطيب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغي أن لايهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن

مخصوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم. وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم. بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحمله بنيته من الرياضة ويبني على ذلك رياضته"، (ص : ٦١).

(٢) "أن يطلب صديقا "صدوقا" بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه"، (ص :٦٥).

(٣) "أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدي المساويا"، (ص :٦٥).

(٤) "أن يخالط الناس فكل مارآه مذموما فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه، فإن المؤمن مرآة المؤمن. فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى فما يتصف به واحد من الأقران لاينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه فليتفقد نفسه ويطهرها من كل مايذمه من غيره وناهيك بهذا تأديبا"، (ص : ٦٥).

مما سبق يتضح أن كلا من ابن مسكويه والغزالي قد أكد على أهمية وأثر الإرادة والسلوك ووحدتهما في اكتساب السلوك الخلقي وهذا ما أكده علم النفس الحديث حيث يقول (الهاشمي ، ١٩٨٦م) "يؤكد علم النفس على أهمية العلاقة الوظيفية بين الإرادة الفكرية والسلوك العلمي بمعنى وجود فكرة امتزاج السلوك عموما والسلوك المعتاد والخلقي والرغبة بالقوة الدافعة" ، (ص : ١٤٩).

كما أكد على أهمية العادة والتكرار فى اكتساب السلوك الخلقي والذي بدوره يصبح جزءاً "رئيسا" من شخصية الإنسان ويؤثر على بقية العادات تأثيرا ملحوظا، حيث أشار (الهاشمي ، ١٩٨٦م : ١٣٦) إلى أن العادة " هي ميل نفسي متعلم مكتسب بالتكرار والخبرة للقيام بذات الأعمال السلوكية بحيث يقوم بها الإنسان بطريقة آلية عفوية إلى حد بعيد ويطمئن الفرد سعادة في تمام الأداء". والعادات مختلفة ومتنوعة ولا تقتصر فقط على النواحي الايجابية فقط بل تشتمل أيضاً على العادات السيئة. والعادات السيئة تتكون بنفس الطريقة التي تتكون بها العادات الحميدة أو الإيجابية. والتخلص من العادات السيئة أو الأخلاق غير الحميدة يتم بوسائل وطرق متعددة ذكر العالمان المسلمان سلوك الأخرين فيبتعد عن ما هو مذموم ويقدم على ما هو مقبول ويعتبر أسلوب ملاحظة الآخرين أو تقليدهم من أساليب التعلم التي ظهرت في الدراسات النفسية الحديثة. وهناك عوامل يمكن أن تؤثر في عملية ملاحظة سلوك الآخرين أو تقليدهم توصل إليها باندورا Bandura في دراساته وأبحاثه ، حيث أشار (فتحي ، ١٩٨٣م: : ١٩) إلى أن بيرجن Berqin, 1976 قام بتخليص تلك العوامل ومنها :

١ ـ النماذج التي تتميز بالدفء والإشباع العاطفي يتم تقليدها أكثر من نقيضها.

٢ ـ الأطفال يميلون أكثر إلى تقليد النماذج التي من سلطتها الضبط وتوزيع المكافآت.

٣ ـ التعزيز المباشر للاستجابات المراد تقليدها يزيد من احتمال حدوث التقليد وتكرارها من جانب المتعلمين.

٤ ـ النماذج الذكرية أكثر مدعاة للتقليد من النماذج الأنثوية.

٥ ـ النماذج الأرفع منصبا أكثر مدعاة للتقليد من نقيضها.

٦ ـ احتمالات حدوث التقليد تزداد إذا مازادت نسبة التماثل أو التشابه بين النموذج والشخص المتعلم.

٧ ـ مجموعة الأقران أو الوسط الاجتماعي له تأثير بالغ في إتمام عملية التقليد.

٨ ـ استخدام التوجيه اللغوى أو الرمزى أو كليهما يساعدان على تسهيل عملية التقليد.

تنمية السلوك الخلقي لدى الأطفال :

يؤكد ابن مسكويه على أثر السريعة في القيام بتنشئة الأحداث وتعويدهم على الأخلاق والفضائل وعمل الوالدين في هذه التنشئة الأخلاقية • ويقول حول هذا المفهوم "الشريعة هي التي تقوم الأحداث وتعودهم الأفعال المرضية وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل والبلوغ إلى السعادة الأنسية بالفكر الصحيح والقياس المستقيم . وعلى الوالدين أخذهم بها وبسائر الآداب الجميلة بضروب السياسات من الضروب إذا دعت إليه الحاجة أو التوبيخات إن صدقهم أو الأطماع في الكرامات أو غيرهم مما يميلون إليه من الراحات أو يحذرونه من العقوبات ، حتى إذا تعودوا ذلك واستمروا عليه مدة من الزمان كثيرة أمكن فيهم حينئذ أن يعلموا براهين ماأخذوه تقليدا وينبهوا على طريق الفضائل واكتسابها والبلوغ إلى غاياتها" ، (ابن مسكويه ، ١٣٧٨هـ : ٢٩).

ويوضح ابن مسكويه أهمية تنشئة وتربية الأحداث على السلوك الأخلاقي والآداب والفضائل ، حتى تسود الفضيلة المجتمع الإنساني . حيث يذكر ابن مسكويه قوله : "لأنهم أطرى عودا وأمرن طباعا ولذلك يسهل طبعهم بالعوائد الحسنة" (ص : ٢٩).

وهذا ما تؤكده الدراسات التربوية والنفسية في علم النفس الحديث ، فكثير من الطرق التربوية والنفسية التي منها استخدام الثواب والعقاب والمديح والذم هي مفاهيم نفسية تستخدم لتعليم السلوك المحبب والمرغوب،والسلوك الخلقي الفاضل لدى الأطفال والأحداث. فنجد مثلا التعلم الاشتراطي عن طريق التعزيز والعقاب "أن يقوم القائمون بالتربية بالاشتراط أو يساعدوا المتعلم على التعلم عن طريق التشكيل والتعزيز . مثال ذلك إعادة الاشتراط للاستجابات الانفعالية عن طريق الإجراءات (البافلوفية) أو تقوية أو إضعاف الاستجابات الحركية مثل السلوك الشائن في المدرسة وفي المنزل عن طريق ما يلي هذه الاستجابات من مكافأة أو عقاب" (فتحي ، ١٩٨٣م : ١٧١).

ويضيف ابن مسكويه حول أهمية تربية الأحداث على السلوك الخلقي بقوله: "هي للكبار من الناس أيضا نافعة ، ولكنها للأحداث أنفع ، لأنها تعودهم محبة الفضائل وينشئون عليها فلا يثقل عليهم تجنب الرذائل ويسهل عليهم بعد ذلك جميع ماترسمه الحكمة وتحدده الشريعة والسنة ، ويعتادون ضبط النفس عما تدعوهم إليه من اللذات القبيحة وتكفهم الانهماك في شيء منها والفكر الكثير فيها"، (ص : ٤٥).

ويتحدث ابن مسكويه عن الحس الخلقي بظهور الحياء ، ويقول في ذلك : "أول ما يحدث فيه من هذه القوة الحياء ، وهو الخوف من ظهور شيء قبيح منه ولذلك قلنا أول ما ينبغي أن ينغرس في الصبي ويستدل به على عقله الحياء فإنه يدل على أنه قد أحس بالقبيح ، ومع إحساسه به يحذره ويتجنبه ويخاف أن يظهر منه أو فيه" ، (المرجع السابق : ٥٨).

وهذه تظهر في نظريات حديثة في النمو الخلقي ، حيث نجد في المرحلة الرابعة في نظرية ليوفنجر، أنه في هذه المرحلة يبدأ الطفل في استدخال القواعد والعمل على التوحد مع مصادر السلطة الخارجية المحيطة به إلى حد ما ، ويبدأ في إظهار شعور الخجل حين يأتي بالأمر المشين مما يشير إلى نمو الذات العليا والحس الخلقي ، وبذلك يعرف الطفل السلوك السوى النبيل ممن حوله في المجتمع إذا ما سمح له ـ والداه ، أو مدرسوه وغيرهم ـ القيام بهذا السلوك.فالطفل يتعلم ما هو خير، وعندما يبلغ سن التمييز الإدراكي فإنه يدرك كثيرا من القيم الأخلاقية وينمو هذا الحس بعوامل التنشئة الثقافية المقصودة . وهذا الحس الخلقي أطلق عليه في الدراسات النفسية الحديثة عدة أسماء منها ـ الوجدان ، الضمير اليقظ ـ الذات العليا ـ حاسة الخير والنبل . وهذا الإحساس الإنساني هو الذى يميز بين نوعين من السلوك : سلوك الخير وسلوك الشر ، وهذا ما أشار إليه ابن مسكويه بقوله: "حتى إذا تعودوا ذلك واستمروا عليه مدة من الزمان كثيرة أمكن فيهم ـ حينئذ أن يعلموا براهين ما أخذوه تقليدا"، (ص : ٢٩).

كما اهتم ابن مسكويه بدور القدرة والنموذج في التنشئة.ونجد الدراسات الحديثة في علم النفس تؤكد على النموذج ووظيفته وأثر الاقتداء في تعلم السلوك الخلقي واكتسابه. ويتخذ ابن مسكويه من نفسه مثالا وأنموذجا للاقتداء بالسلوك الخلقي الفاضل.ويقول حول هذا المفهوم : "وليعلم الناظر في هذا الكتاب ـ تهذيب الأخلاق ـ أنى خاصة تدرجت إلى فطام نفسي بعد الكبر واستحكام العادة وجاهدتها جهادا عظيما ، ورضيت لك أيها الفاحص عن الفضائل والطالب للأدب الحقيقي بما رضيت لنفسي بل تجاوزت لك في النصيحة إلى أن أشرت عليك

بما فاتني في ابتداء أمري لتدركه أنت ودللتك على طريق النجاة قبل أن تتيه في مفاوز الضلالة ، وقدمت لك السفينة قبل أن تغرق في بحر المهالك. فا لله ا لله في نفوسكم معاشر الإخوان والأولاد استسلموا للحق وتأدبوا بالأدب الحقيقي لا المزور، وخذوا الحكمة البالغة وانتهجوا الصراط المستقيم وتصوروا حالات أنفسكم وتذكروا قواها"، (المرجع السابق : ٥٢).

ويؤكد علم النفس على القدوة الحسنة حيث تعتبر المثال الواقعي للسلوك الخلقي الأصلي"، والقدوة الحسنة تكون للأفراد على صفة أفراد مثاليين ممتازين، وتكون للجماعات على صفة جماعات مثالية ممتازة" (الميداني،١٣٩٩هـ: ٢٠٣).

وقد اتخذ الإسلام القدوة الحسنة وسيلة من وسائله ، لترقية المجتمعات المسلمة في سلم الكمال السلوكي عامة ، ومنه الكمال الخلقي. قال ا لله تعالى : "لقد كان لكم في رسول ا لله أسوة حسنة لمن كان يرجو ا لله واليوم الآخر وذكر ا لله كثيرا" (الأحزاب : ٢١).

ويذكر (فتحي ، ١٩٨٣م) عن إعطاء النموذج ووظيفته الأساسية في تنمية السلوك الخلقي حيث يقول "إن إعطاء النموذج يقوم بدور أساسي في التربية الأخلاقية وعلى القائمين بالتربية أن يتعرفوا على القيم التي يدرسها من يقومون بتربيتهم ويجعلون أنفسهم قدوة تحتذى"، (ص : ١٧١).

كما وجد علماء النفس الحديث أن السلوك الأخلاقي نمط من أنماط السلوك المكتسب لذا فإن استخدام المحاكاة أو التقليد وسيلة لاكسابه يعتقد بأنها فعالة حيث وجد بريان (Bryan, 1969) أن مشاهدة نموذج يتحلى بالإيثار يؤدي إلى اكتساب هذا السلوك بشرط أن يظهر ذلك في تصرفات النموذج، وأن مجرد

الإرشاد اللفظي لا يؤدي إلى أثر ، خصوصا إذا صحبه عكس ما يقول النموذج ، حيث أشارت نتائج الدراسات إلى أن الأطفال الذين شاهدوا أنموذجاً بشريا يشجع إعطاء التبرعات دون أن يقوم هو بذلك أو يكون العكس، يكون هؤلاء الأطفال في ذلك أقل كرما من الأطفال الذين شاهدوا أنموذجا كريما ولكنه كان غليظا في معاملته.أى أن الأطفال يفعلون كما يفعل لا كما يقول دون أن يفعل (فتحي ، ١٩٧٣ك : ٢٠ - ٢١) ، فالقيم الأخلاقية بهذا المعنى تكتسب عن طريق القدوة أكثر من اكتسابها عن طريق التوجيه والإرشاد.

أما الغزالي فإنه يقول في هذا الجانب: "اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة. وهو قابل لكل ما نقش ، ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب. وإن عوّد الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيمّ عليه والوالي له" (الغزالى ، د.ت ، جـ٣ : ٧٢). والغزالي في هذا النص يؤكد أثر البيئة على سلوك الطفل وأن الفرد يكتسب أخلاقه من خلال تفاعله مع البيئة الأسرية أو البيئة الاجتماعية بصورتها العامة. فالخلق بهذا المعنى حالة تهيؤ عقلي يتكون نتيجة للخبرات التي يتعرض لها الفرد خلال مراحل نموه المختلفة.

هذا وقد أشار الغزالي (المرجع السابق ، ٧٢ - ٧٣) إلى مجموعة من الأنماط السلوكية (مفاهيم العرف الاجتماعي التي ينبغي أن يزود بها الطفل لتحسين أخلاقه ومنها :

أولا : آداب السلوك :

١ - آداب الطعام : يقول الغزالي: إن أول ما يغلب على الطفل شره الطعام، فينبغي أن يؤدب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول عليه بسم الله عند أخذه ، وأن يأكل مما يليه ، وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدق النظر إليه، ولا إلى من يأكل ، وأن لا يسرع في الأكل وأن يجيد المضغ .. الخ.

٢ - آداب الملبس : أن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم كما يقبح إليه حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما.

٣ - آداب النوم : ينبغي أن يمنع عن النوم نهارا فإنه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه.

٤ - آداب المعاملة : يمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته ، بل يعود التواضع والإكرام لكل من عاشره، والتلطف في الكلام معهم ، ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له، بل يعلم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ وأن الأخذ لؤم وخسة ودناءة.

٥ - آداب المجلس : ينبغي أن يعود أن لا يبصق في مجلسه ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل ، ويعلم كيفية الجلوس ، وأن يقوم لمن فوقه يوسع له المكان ويجلس بين يديه.

٦ - آداب الكلام : يمنع الكلام ، ويمنع اليمين رأسا - صادقا كان أو كاذبا - حتى لا يعتاد ذلك في الصغر. ويمنع أن يبتدئ بالكلام ويعوّد أن لا يتكلم إلا جوابا

وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا.
ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب.

ثانيا : دفعه للتعلم :

يقول الغزالي : "ثم يشغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار ، وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين،ويحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد".

ثالثا : دفعه لممارسة الرياضة :

يقول الغزالي:ويعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل.

رابعا : دفعه للممارسة الترويح النفسي :

يقول الغزالي: "وينبغي أن يؤدي له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم يميت قلبه ويبطل ذكاؤه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً".

خامساً : مراقبة رفقاء الطفل :

يقول الغزالي: "ويمنع الطفل من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك فإن ذلك يسري لا محالة من القرناء السوء، وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء".

سادساً : ممارسة التعزيز :

يقول الغزالي: "ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه حتى يرى بعض الأشياء قبيحاً ومخالفاً للبعض، فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ. فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه " (ص:٧٢). كما أشار الغزالي إلى أنه ينبغي ممارسة التعزيز الإيجابي فيقول "ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازي عليه بما يفرح به، ويمدح بين أظهر الناس" (ص:٧٣). كما يوضح عملية التعزيز السلبي المتدرج حيث يقول: "فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة ، فعند ذلك إن عاد ثانيا فينبغي أن يعاقب سراً ويعظم الأمر فيه ويقال له : إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس ، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه ، وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا،والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح"، (ص:٧٣).

ويجدر بنا في هذا المجال أن نشير إلى الصلة الوثيقة بين المنظور الذى أشار إليه الغزالي وبين منظور علم النفس الحديث . "حيث يرى علماء التعلم الاجتماعي اكتساب الأخلاقيات من المنظور السلوكي وأن هذا الجانب من الأخلاقيات

يتكون من تعلم الطفل أن يعبر عن، أو يكف عن التعبير عن أعمال معينة يتم تحديد نوعيتها من الخير أو الشر عن طريق مندوبي التنشئة الاجتماعية، ويتم تعزيزها أو عقابها عن طريقهم. وإذا ما قرنا هذه العملية بقدرة الطفل على تعميم الخبرة وانتقال أثر التدريب فإنه يستطيع أن يحدد إستجابته للمواقف المختلفة طبقا للتشابه بين المثيرات"، (فتحي ، ١٩٨٣م: ١٧-١٨).

كما أشار كارميكل في كتابه "دليل علم نفس الطفل" عن النمو الأخلاقي كعنوان فرعي في باب التنشئة الاجتماعية إلى "أننا نكتسب اتجاهاتنا الأخلاقية المتمثلة في مسايرة الأهداف الاجتماعية عن طريق التعلم مثل أي نمط من أنماط التعلم التي تخضع للتعزيز والملاحظة والتقليد والاقتران بين مثير واستجابة أو حتى التلقين المباشره وأن أساس القيم الاجتماعية يتكون من تأثير الوالدين والأقران والمدرسة ووسائل الإعلام وغيرهم من مندوبي التطبيع الاجتماعي"، (فتحي، ١٩٨٣م: ٢٥).

يتضح مما سبق أن كلا من ابن مسكويه والغزالي اهتم بتنمية السلوك الخلقي لدى الأطفال حتى تسود الفضيلة المجتمع الإنساني حيث ركزا على عملية :

- تعويد الأطفال أنماط السلوك الحسن والمقبول اجتماعيا الذي يعود عليهم وعلى مجتمعهم بالخير والمنفعة.
- استخدام اسلوب الثواب والعقاب في عملية تربية الأطفال.
- أهمية المحاكاة والتقليد والقدوة الحسنة في إكساب الأطفال أنماط السلوك الخلقي المرغوب.

- استغلال عنصر الحياء ـ عندما يظهر في سلوك الأطفال ـ في عملية تزويده بالفضائل والسلوك الحسن.

كما عمد الغزالي إلى التركيز على بعض الجوانب مثل :

- إكساب الطفل مفاهيم العرف الاجتماعي التي تشتمل على خصوصيات الثقافة الإسلامية التي تظهر في آداب السلوك ، والمعاملات الاجتماعية ، والدفع للمتعلم وطلب المعرفة والترويح عن النفس.
- ممارسة الثواب والتدرج في أسلوب العقاب.

خـــــاتمة

يعد كل من ابن مسكويه والغزالي من العلماء المسلمين الذين اعتنوا عناية خاصة بالبحث الخلقي،وقد أفرد كل منهما جزءاً كبيراً من كتاباتهما في هذا الجانب والتي ظهرت في كتاب ابن مسكويه "تهذيب الأخلاق" وجزء من كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي. وقد تعرض كل منهما لمفهوم الخلق بالتوضيح والتفصيل واتفق الغزالي في تعريفه للخلق مع ابن مسكويه لكن تعريف الغزالي كان أكثر شمولاً وتفصيلاً من تعريف ابن مسكويه.

كما أوضح كل من ابن مسكويه والغزالي قدرة الإنسان وإمكاناته على تعديل وتغيير السلوك الخلقي، حيث لا ينبغي للإنسان أن يستسلم لخلق ما بأنه موروث حيث إن عملية التغيير والتعديل واردة ولكن تحتاج إلى مهارة وجهد ، لأن الأفراد يختلفون فيما بينهم في عملية التقبل للتغيير والتعديل في سلوكهم. وينبغي على الإنسان أن يصرف جهده الأساسي للبحث عن تحصيل الفضيلة باتباع السلوك الحسن واختيار المنهاج السلوكي الذي يقود إلى أخلاق الخير ، والابتعاد بالإرادة والعزيمة عن السلوك الذي يقود إلى أخلاق الشر . وأيضاً نجد أن الغزالي تناول هذا الموضوع بشيء من التوضيح والتفصيل أكثر مما تناوله ابن مسكويه.

كما أشار ابن مسكويه والغزالي إلىأن الأخلاق قابلة للاكتساب والتعلم من تفاعل الفرد مع البيئة التي يعيش فيها. وأوضحا بأن الأخلاق الحسنة تكون إما بالطبع والفطرة وإمّا باعتياد الأفعال الجميلة أو بملاحظة وتقليد ومصاحبة أرباب الفعال الجميلة الذين هم قرناء الخير. كما أوضح بأن الإنسان قابل للتأثر والتأثير في

مختلف مراحل النموّ التي يمر بها . لذا يكون التوجيه والإرشاد لازما لكل الأعمار والمستويات. إضافة إلى الأهمية الكبرى للقدوة والنموذج الذي يظهر في تصرفاته أنماط السلوك الخلقي الحسن.

كما أوضح كل من ابن مسكويه والغزالي أهمية تنمية السلوك الخلقي لدى الأطفال، حيث ينبغي تعويدهم على أنماط السلوك الحسن والمقبول مع استخدام أساليب الثواب والعقاب لترسيخ تلك السلوكيات مع محاولة استغلال بعض العناصر الإيجابية في الأطفال، كالحياء الذي يظهر بصورة مبكرة لدى الأطفال. كما أكد الغزالي على إكساب الطفل بعض مفاهيم العرف الاجتماعي التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالسلوك الخلقي مثل آداب السلوك وآداب المعاملة الاجتماعية والحث على التعلم وطلب المعرفة والترويح عن النفس ، والتدرج في استخدام العقاب.

ونلاحظ أيضاً أن الغزالي قد تعرض لهذه الجوانب بشيء من التوضيح والتفصيل أكثر مما تناوله ابن مسكويه. وبهذا نجد أن هناك إسهامات واضحة للعلماء المسلمين في مجال السلوك الخلقي سبقت الكثير من المؤلفات الغربية في الدراسات النفسية المرتبطة بالسلوك الخلقي، وأن المفاهيم التي ذكرها ابن مسكويه والغزالي ارتبطت ببعض المفاهيم التربوية والنفسية التي ظهرت في الدراسات النفسية الحديثة التي أوضحنا بعضاً منها خلال هذا البحث.

"قائمة المراجع"

- القرآن الكريم :
- ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد (١٣٧٨هـ) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، القاهرة: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح.
- أمين ، أحمد (١٩٦٩م) كتاب الأخلاق، بيروت: دار الكتاب العربي.
- الترمذي، (د.ت)، سنن الترمذي، المدينة المنورة : المكتبة السلفية.
- راجح، أحمد عزت (د.ت) ، أصول علم النفس، بيروت : دار القلم.
- زقزوق، محمود حمدي (١٩٨٣م)، مقدمة في علم الأخلاق، الكويت: دار القلم.
- سلطان، محمود السيد(١٩٧٩م)، مسيرة المنار التربوي عبر التاريخ، القاهرة: دار المعارف.
- الشرباصي، أحمد (د.ت)، الغزالي والتصوف الإسلامي، القاهرة: دار الهلال.
- الشيخ، سليمان الخضرى (١٩٨٢م)، البحوث النفسية في التفكير الخلقي، القاهرة : كلية التربية /جامعة عين شمس.
- العثمان، عبد الكريم(١٤٠١هـ)، الدراسات النفسية عند المسلمين، القاهرة : مكتبة وهبه.
- الغزالي، أبوحامد محمد(د.ت)، إحياء علوم الدين، حـ٣، بيروت : دار المعرفة.
- فتحي، محمد رفقي محمد(١٩٨٣م)، في النمو الأخلاقي، الكويت : دار القلم.
- مبارك، محمد زكي عبد السلام (د.ت)، الأخلاق عند الغزالي، القاهرة : مطابع دار الكتاب العربي.
- الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكه(١٣٩٩هـ)، الأخلاق الإسلامية وأسسها، بيروت : دار القلم.
- الهاشمي، عبد الحميد محمد (١٣٨٩هـ)، أهمية النمو الخلقي في التكوين النفسي للإنسان، الرياض، كلية التربية /جامعة الملك سعود، ندوة علم النفس والإسلام، مجـ٢.
- الهاشمي، عبد الحميد محمد (١٩٨٦م)، أصول علم النفس العام، جدة : دار الشروق.

الملحق الأول

ترجمة حياة ابن مسكويه

هو : أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب المعروف بابن مسكويه مولده : ٣٢٥ ـ ٤٣١ هجرية .. مكان مولده : الري

يعد ابن مسكويه من الفلاسفة المسلمين الذين اعتنوا عناية خاصة بالبحث الخلقي. وقد تحدث ابن مسكويه عن العديد من الموضوعات النفسية، والتربوية، والفلسفية المتعلقة بالسلوك الخلقي ، والنمو الخلقي التي يتضح ارتباطها بالدراسات الحديثة في علم النفس والنمو الخلقي.

لم يتلق ابن مسكويه علومه على أحد من الأساتذة، وإنما أستاذه اجتهاده .

فطبعه المتأصل : حب الحقيقة ، والاطلاع الواسع كان سببا في تعليم نفسه، ولقد ساعدته وظيفته في خزائن الكتب على تنمية ذخائر فكره وتوسيع مدى ثقافته وعلمه. والكتاب هو معلم ابن مسكويه منذ شبابه الأول حتى اللحظة الأخيرة من عمره . واكتسب بهذه الطريقة من العلوم كثيرا حتى إنه كتب بالعربية والفارسية وترجم عن السريانية.

لقد أضيف إلى اسمه لقب "ابن" قبل مسكويه بحيث أصبح اللقب في سياق اسمه لجده الأول. والذين قالوا "بابن مسكويه" قلة بينما الأغلبية الساحقة منهم يؤكدون على "مسكويه" لقبا له بالذات،ومن أمثال هؤلاء : أبو حيان التوحيدى ، والثعالبي، والخوارزمي ، وأبو سليمان المنطقي، والوزير أبو شجاع، وحاجي

خليفة، والقفطي، وابن أبي أصيبعة. ويؤيد هذا الرأى أيضا ست رسائل لمسكويه موجودة في الآستانة.

ويقال إن أغلب الذين دونوا اللقب كانوا من رفاقه الذين يعرفونه أو يراسلونه، وهم أولى بالتصديق لأنهم خلفاؤه وهم أدرى الناس باسمه ولقبه وكنيته.

أما سبب تلقيبه "مسكويه" فليس هناك تعليل لذلك، إلا أنه على غرار سيبويه، ومعناه "رائحة المسك" والمسك بالفارسية له ذات الرسم بالعربية إلا أنه بالشين المعجمة "مشك". ولا شك أن المقصود من اللقب تكريم الرجل والإشارة إلى طيب أخلاقه ورقة حاشيته وعلو أدبه. بالإضافة إلى هذا فقد أخطأ من ترجموا له بقولهم: إنه كان مجوسيا وأسلم فهذا باطل إذا نظرنا إلى اسمه واسم أبيه الإسلاميين.

البيئة التي عاش فيها مسكويه :

يعتبر مسكويه من علماء القرن الخامس الهجري وبالتحديد من المخضرمين الذين عاشوا آواخر الرابع وأوائل الخامس. لقد وصف مسكويه عصره بأنه عهد "مشايخ الملوك" حيث تعقد المجالس الممتعة بحضور الأمراء والوزراء وأهل الفكر والأدب. ومن هؤلاء الوزراء عضد الدولة ، وابن العميد ، وأبو سليمان المنطقي. ويؤم هذه المجالس أصحاب الرأي والعلماء يتحاورون أحيانا ويتسامرون أحيانا أخرى ، فتثمر محاوراتهم ومسامراتهم أبحاثا علمية شيقة. ولقد ازدهر ذلك العصر، وراجت فيه أسواق النظم والنثر ونبغ كثير من الوزراء أمثال : المهلبي وابن العميد، والصاحب بن عباد، وارتقت العلوم الدينية كعلم القراءات والتفسير والحديث

وعلم الرجال، ومصطلح الحديث ، والقصص ، والعلوم الدينية المقارنة كعلوم "الملل والنحل".

وشجع العلماء والكبراء العلوم العقلية وإكرام أهلها، وصرفت أموال كثيرة في هذه الأبواب، وتنافس الكبراء باقتناء عظيم المكتبات كابن العميد، والصاحب ابن عباد، وراجت سوق الفلسفة، والمنطق، والتاريخ، والجغرافيا، والعلوم الرياضية، والطبيعية، والطبية.

ـ الوضع السياسي في عهد مسكويه :

الضعف وعدم الهيبة المتمثل بالخلافة. ولقد كان الحكم الحقيقي للأمراء، وقد عاصر مسكويه الدولة البويهية مع كثير من أمرائها منذ شباب هذه الدولة، وعاش مسكويه حتى آخر عمره في ظل أمراء هذه الدولة. ولقد مرت هذه الدولة بأمراء مختلفين حرصوا على جمع الأموال، وظهرت حدة التشيع في أوساط الحكم بوجود بني بويه المبالغين في تشيعهم، الأمر الذي انتقلت آثاره إلى العامة، ووقعت الاضطرابات وأعمال السلب والنهب بسبب ذلك ببغداد ، وانفجرت الاصطدامات. ورأى مسكويه بأم عينه الفساد في الإدارة والاضطرابات في مناصب الحكم، وشهد عن كثب فساد الحياة الاجتماعية، واستخلص العبر واكتشف مصادر الخطأ والخلل، وهكذا فقد مكنته حياته الطويلة من أن يقف على كل صغيرة وكبيرة في تاريخ الدولة البويهية .

ـ الذين عاصرهم وعاشرهم :

من المسلم به أن شخصية المرء تتكون، ومعارفه تنمو، بتأثير البيئة العلمية التي يعيش في ظلهاه ولقد علمنا أن الرجل عاش في أدق فترة من فترات انهيار الخلافة

الإسلامية ببغداد، وصعود نجم الدولة البويهية، وفساد الحياة الاجتماعية، وشيوع الحكم الاستبدادي، وإخضاع الأموال والأحوال والأرواح لهوى السلطان واشتعال الحروب والاصطدامات المذهبية. ولقد اخترنا عدداً من العناصر البشرية التي كانت تشكل في عصره محركات الحياة الفكرية وكان له بها اتصال زمالة أو خصومة منهم :

- من الوزراء : الصاحب بن عباد - المهلبي - ابن العميد - الخوارزمي.
- من المؤرخين : أبو الريحان : محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي.
- من المهندسين والرياضيين : أبو الوفاء : محمد بن محمد بن يحيى البوزنجاني.

مصنفاته :

نذكر هنا بعضاً من كتبه ورسائله :

- كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق.
- كتاب الفوز الأصغر في الإلهيات.
- كتاب ترتيب السعادة.
- كتاب تجارب الأمم.
- وصيته التي تعتبر دستور مسكويه الأخلاقي. - الجامع والمرجع في الطب.
- السيرة.
- كتاب الأدوية المفردة.

ومن الرسائل :

- رسالة في اللذات والآلام.

- رسالة في الطبيعة.
- رسالة في جوهر النفس.
- مقالة في النفس والعقل.
- تعريف الدهر والزمان.
- رسالة في جواب على سؤال "حقيقة العدل".
- الجواب في المسائل الثلاث.
- الوصايا الذهبية.
- وصية لطالب الحكمة.
- المختصر في صناعة العدد.
- كتاب حقائق النفوس.
- كتاب فوز السعادات.
- كتاب أحوال السلف وصفات بعض الأنبياء السابقين.

الملحق الثاني

"ترجمة حياة الغزالي"

هو : أبو حامد زين العابدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي المشهور بالغزالي، ولقد ثار خلاف حول أصل الرجل هل هو عربي أو فارسي؟ ولم ينته هذا الخلاف إلى تحقيق أو يقين. ولد سنة ٤٥٠هـ الموافق ١٠٥٨ أو ١٠٥٩م في مدينة طوس.ويروى أنه ولد في قرية غزالة من قرى طوس. وقد عرف التاريخ أربعة أشخاص كل منهم ملقب بالغزالي وأشهرهم أبو حامد مؤلف كتاب "إحياء علوم الدين".

أما والد الغزالي فقد كان رجلا متدينا ورعا يشتغل بغزل الصوف ليكسب قوته من عمل يده، وكان محبا للعلم والعلماء فكان يجالسهم ويخدمهم ويسأل ربه أن يرزقه ابنا فقيها فرزقه الله بابنين أحدهما أصبح فقيهاً وحجة الإسلام (أبو حامد) والآخر واعظاً مشهوراً (أحمد). وقد توفى والدهما وأبو حامد في نحو السادسة من عمره وأخوه أحمد قريبٌ منه في السن. وقد أوصى الأب بولديه إلى صديق له صوفي صالح ظل يرعاهما إلى أن نفذ المال الذي تركه والدهما، ونصحهما بالالتحاق بالمدرسة لأنه رجل فقير لا يقدر على مصروفهما. فأطاع الولدان النصيحة ودخلا المدرسة وأكبر همهما أن يضمنا القوت لنفسيهما. لقد قضى الغزالي فترة يطلب علم الفقه في طوس على يد أستاذه أحمد بن أحمد الرإذكاني الطوسي.ثم ارتحل إلى جرجان وأخذ "التعليقة" في الفقه عن الإمام أبي القاسم إسماعيل بن مسعدة الإسماعيلي. ثم رجع إلى طوس وفي أثناء عودته إلى

طوس داهمه قطاع الطرق واستولوا على كتبه لكنها أرجعت إليه وعكف على حفظها في طوس ثم رحل بعد ذلك إلى نيسابور وأخذ العلم عن إمام الحرمين أبي المعالي ضياء الدين عبدالملك بن أبي محمد عبدالله بن يوسف الجويني النيسابوري. وفي حمى الإمام الجويني بدأ نجم الغزالي يظهر وساعده على هذا الظهور استعداد ملهم ورغبة قوية في التعليم وفهم شديد في البحث والاطلاع.

وبعد أن أقام الغزالي في نيسابور مدة من الزمن خرج منها سنة ٤٧٨هـ متوجها إلى نظام الملك الوزير السلجوقي، فلقى منه تكريما وتعظيما. وبعد خمس سنوات تولى التدريس في المدرسة النظامية ببغداد بتكليف من الوزير نظام الملك، وكان ذلك في سنة ٤٨٤هـ وهو في الرابعة والثلاثين من عمره. وكان يحضر درسه في بغداد أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم. واستطاع الغزالي أن ينتزع لنفسه لقب "إمام العراق" بعد أن انتزع وهو في نيسابور لقب "إمام خراسان". ثم بدأت أزمة الغزالي الروحية في رجب ٤٨٨هـ واستمرت حتى ذي القعدة أي نحو ستة أشهر. ولقد أحس الغزالي بقوة غامضة مبهمة تقطعه فجأة عن التدريس بنظامية بغداد ولقاء التلاميذ، وأصبح عليلا ملازما للفراش ويعاف الطعام حتى يؤثر ذلك على صحته وتبطل قوة هضمه وينعقد لسانه عن الكلام ويصيبه ذهول مطبق يحار فيه الأطباء. ثم يصحو الغزالي صحوة فيقرر الرحيل عن بغداد. وتظاهر بأنه خارج إلى مكة للحج لكنه توجه إلى الشام وكان ذلك عام ٤٨٩هـ بعد أن أناب أخاه أحمد في التدريس بالمدرسة النظامية.

وقد اختار الغزالي دمشق لأنها كانت مشهورة حينئذ بأن حياة الصوفيين فيها ميسورة.وهناك تزهد الغزالي. ثم رحل بعد ذلك إلى بيت المقدس وظل فيها

مدة ومنها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والزيارة وكان سفره للحج في ذي القعدة سنة ٤٨٩هـ. وقد ذكر بعض المؤرخين أن الغزالي زار مصر بعد ذلك وتوجه منها إلى الإسكندرية حيث أقام بها مدة. وفي سنة ٤٩٠هـ مر الغزالي ببغداد في طريقه إلى خراسان ، ولم يقم طويلا ببغداد بل رحل عنها إلى خراسان ودرس مدة في طوس ثم عاد إلى ترك التدريس واشتغل بالعبادة ، وآثر العزلة وتصفية القلب للذكر. كما أن الأحداث السياسية لم تدعه هادئاً حيث ظهرت فتنة الباطنية في تلك الفترة. وبعد عشرة أعوام أو أحد عشر عاما قضاها حجة الإسلام في العزلة والخلوة والتعبد عاد إلى التدريس في المدرسة النظامية بنيسابور بإلحاح من الوزير فخر الملك علي بن نظام الملك واستمر في التدريس بالنظامية حتى مقتل فخر الملك في شهر محرم من عام ٥٠٠هـ.

وبعد مقتل فخر الملك ترك الغزالي التدريس بنظامية نيسابور واعتزل في بيته ووزع أوقاته على وظائف الخير. هذا وقد توفي الغزالي في يوم الاثنين الموافق ١٤/٦/٥٠٥هـ الموافق ١٨/١٢/١١١١م في مدينة طوس. لم يعش الغزالي إلا خمسة وخمسين عاما لكنه خلال هذا العمر الذي ليس بالطويل قد ألف عددا كبيرا من الكتب والرسائل ذكر أسماءها (الشرباصي، د.ت: ١٤٤) لكن أشهرها كتاب "إحياء علوم الدين". الذي ترجم إلى العديد من اللغات. (الشرباصي، د.ت).